الفصل الثانى

مثالية فشته

- تمهيد
- حياته وأعماله
- فشته والفلسفة الكانطية
- مبدأ الذاتية

تمهـيد

تـولى "فشته" بعد "كـانط" قيـادة الفكر الفلسفى الألمـانى ، ومضى بـه قدماً إلى أوج عظمته ، فحقق مـا تنبأ بـه "شلنج" حين صرح بأن "فشته" سيحمل الفلسفة إلى ارتفاع شاهق يجعل معظم رجالنـا من أتبـاع "كـانط" يشعرون بشىء من الدوار ، ولذا كانت مهمة "فشته" صعبة وشاقة وهى بسط المذهب "الكانطى" وإصلاح أمره . لقد أنفـق نـشاطه الفكـرى فـى فـترة شـهدت حـدوث تغـيرات بعيـدة المـدى فـى الـشعب الألمانى، وهى تغيرات أدى فيها "فشته" دوراً تاريخياً حاسماً . ولا خلاف فى أن آرائه تعد منفعة عملية فوق قيمتها الفلسفية، إنهـا تبين لنـا – فى جلاء ووضوح – الاتصال بين فكر الفيلسوف وبين روح العصر . كتب يقول :

"إن كل ما هو عظيم وكل ما هو حسن وجميل – فى عصرنا هذا – يرجع كله إلى أن رجال الماضى النبلاء الأقوياء قد ضحوا من أجل المبادئ والأفكار بجميع مباهج الحياة" (1).

وإذا تأملنا فلسفة "فشته" سنجد أنها تحمل طابع "المثالية" فى نظرية الوجود، وتمتاز – هذه المثالية – بقولها بأن مبدأ الوجود واحد . وهذا الواحد هو "الأنـا" أو العقل وليس خارجه شىء . حقاً لقد قـال "اسبينوزا" بالواحدية ، أى أرجع كل الوجود إلى مبدأ واحد ، هو الذى أسماه "الجوهر" ولكنه فهم الجوهر بمعنى "الموضوع" لا "الذات" . أمـا عنـد "فـشته" فـإن الواحـد هـو "الـذات" ومـن هنـا سميـت مثاليتـه باسـم "المثاليـة الذاتيـة" لربطهـا بمـا ذهـب إليـه "كـانط" فـى المعرفـة المتعاليـة التـى لـو استخلـصت نتائجها من ناحية المذهب فى الوجود ، لأمكن أن تؤدى إلى هذه "المثالية الذاتية" (2).

* * * *

حياته وأعماله

ولد "فشته" فى 19 مايو عام 1762 فى "رامناو" Ramenau ، أظهر منذ نعومة أظفاره نبوغاً كبيراً مما دعا أحد الأثرياء بتكفل نفقات تعليمه . وابتداء من هذه اللحظة بدأ "فشته" يستعد لتعليم عال فدرس فى مدرسة "مايس" ثم فى مدرسة "شوليفورتا" ، وكانت هذه الأخيرة أقرب إلى المدارس الدينية .

عاصر "فشته" المعركة اللاهوتية التى قادها "لسنج" حيث نهل من الفلسفة والإلهيات ما استطاع فى "بينا" . وفى أثناء دراسته فى "كونجسبرج" اطلع على فلسفة "كانط" فأصدر كتاباً بعنوان "بحث نقدى لكل وحى" ، أراد أن يكون تطبيقاً لمذهب "كانط" فى "الدين" . ونشر بعد ذلك كتاباً بعنوان "تصحيح آراء الجمهور عن الثورة الفرنسية" ، رحب به المفكرون الألمان ترحيباً وفيراً .

ولما ذاع اسمه عرضت عليه جامعة "بينا" كرسى الفلسفة فيها عام 1794 ، ومن "بينا" أخذت آراؤه فى الذيوع : قبلها "شلنج" و "ريتهولد" و"شليجل" ، وكتب إليه "جوته" منوهاً بنظريته فى المعرفة . وفى هذه المرحلة من حياته العقلية أصدر كتاباً بعنوان "أساس نظرية العلم" عام 1794، ثم نقحه ونشره بعنوان "المدخل الأول لنظرية العلم" عام 1797 ، وهذا الكتاب أفضل ما يعبر عن نظريته فى المعرفة . وبسط "فشته" نظريته فى الحقوق ومذهبه فى الأخلاق فى كتابيه "الحق الطبيعى" عام 1796 و"الأخلاق" 1798 [3].

لقى مذهب "فشته" الكثير من المعارضات ، وولد العديد من العداوات الشخصية وغير الشخصية . ومن هنا قامت المشاكل والمنازعات بينه وبين سائر الكتَّاب والمفكرين، لكنه تصدى لهم جميعاً، وأتهم بالإلحاد وتدخلت السلطات ، ووجه الاتهام إليه بأنه يعمل على تقويض دعائم الشعائر الدينية . وعندما صدر الحكم ضده، أراد تبديد هذه التهمة فأضطر – كما قال – للخضوع للسلطة . فمرت هذه العاصفة ،

ولكن كان لها تأثير كبير فى نفسه فيما بعد . ثم ثارت المشكلة الكبرى المسماة باسم "مشكلة الإلحاد الكبرى" عام 1799 ، صدر الحكم بإدانته رسمياً واضطر بعدها إلى مغادرة "بينا" . وذهب إلى "برلين" عام 1800 وكانت الحرب بين بروسيا ونابليون وبدأت الحركات الوطنية فى بروسيا من أجل طرد نابليون من ألمانيا . ولعب "فشته" فى هذه المعركة الوطنية دوراً خطيراً . بدأ يوجه خطباً إلى الأمة الألمانية ، ستصبح فيما بعد من المؤلفات المشهورة له ، واستمر فى هذا الكفاح حتى انتصرت ألمانيا عام 1813 . ثم توفى "فشته" فى 27 يناير عام 1814 [4].

* * * *

فشتـه والفلـسفتة الكـانـطـيـة

ظهر "فشته" الشاب على مسرح الفلسفة ، وأبدى حماسه فى عرض الفلسفة النقدية ، معلناً أن العناية الإلهية قد ندبته لتنفيذ وصية "كانط" الفلسفية ، كتب فى عام 1797 (فى المقدمة الأولى لكتابه "نظرية العلم") يقول :

"إن مؤلف (نظرية العلم) اقتنع بعد معرفة عاجلة للأدب الفلسفى الذى ظهر فى أعقاب كتب (كانط) ، أن الهدف الذى قصد إليه ذلك الرجل العظيم من إحداث انقلاب تام فى آراء العصر عن الفلسفة وعن العلوم كلها ، قد أخفق فى تحقيقه إخفاقاً تاماً ؛ وأن أحداً من الفلاسفة العديدين الذين جاءوا بعده لم يفهم مقصوده فهماً دقيقاً " (5) .

قرر "فشته" أن يجعل حياته وقفاً على بسط ذلك الكشف العظيم الذى أتيح لذلك المفكر ، ولكن فى صورة مستقلة تمام الاستقلال عن الصورة التى عرضها "كانط"، يقول :

"لقد قلت مراراً وأكرر القول أن مذهبى ليس شيئاً آخر غير مذهب (كانط)، أعنى أنه يعبر عن وجهة النظر نفسها ، وإن كان فى سيره مستقلاً تماماً الاستقلال عن عرض (كانط) لمذهبه . ولم أقل هذا لأتستر وراء شخصية كبيرة ، أو لكى أجد لمذهبى سنداً خارجه ، وإنما أقول هذا إقراراً للحق وإنصافاً للحقيقة" (6) .

من هذا يتبين ، أن "فشته" كان يؤمن ويقرر صراحة أن مذهبه هو مذهب "كانط" ، ولكن كما فهمه هو ، وفهمه له هو الفهم الحقيقى الذى يتفق مع الهدف الأصلى الذى استهدفه "كانط" من فلسفته . ولكن هل مذهب "فشته" هو مجرد عرض واضح لحقيقة مذهب "كانط" ؟

استوقف نظر الباحثين المعاصرين الذين سعوا إلى فهم الفلسفة الكانطية أمران :

الأول : انعدام الوحدة فى المذهب ، ووجود مبادئ عديدة متعارضة ؛ واستوقفهم – بوجه خاص – تلك الثنائية بين عالم الظواهر وعالم الأشياء فى ذاتها أى بين "الحساسية" التى تزود الذهن بمقولات الزمان والمكان ، وبين الفكر الذى له نشاط صورى بحت ، خال من كل فحوى .

الأمر الثانى : الفصل بين صورة المعرفة ومادتها ، أى افتراض "الشىء فى ذاته" افتراض حقيقة لا تنال فى ذاتها ، هى علة لأحوال حساسيتنا وعماد لحدوسنا الحسى [7].

من هذا المنطلق نرى ، أن مذهب "فشته" محاولة جريئة لإعادة تلك الميتافيزيقا التى سعى "كانط" طوال حياته إلى هدمها . أننا نجد خلافاً بينهما فى نواحى عديدة – فمن حيث نقطة الابتداء – نجد "فشته" يؤكد وجود مبدأ واحد مطلق هو الأساس لمادة المعرفة وشكلها ويعتمد فى بسط هذا المبدأ على منهج الاستنباط القبلى .

من هنا ، يدعى "فشته" أنه يستطيع أن يبنى العالم كله استنباطاً من مبدأ واحد مطلق ، على عكس ما ذهب إليه "كانط".

إن "كانط" يبدأ من معطيات واقعية للشعور وليس من مبدأ واحد مطلق ، ولئن كانت هذه المعطيات ليست تجريبية عرضية ، فإنها معطيات ضرورية كلية تؤلف الطابع العام لكل أنواع الشعور. ثم يرتفع "كانط" من هذه المعطيات عن طريق التحليل إلى مبادئ تفسيرها. ولم يستطع "كانط" أن يؤكد لنا هل هذه المبادئ عديدة مستقلة أو يمكن ردها إلى الوحدة ؟ هل هى نسبية أو يمكن الوصول إلى مبدأ مطلق ؟ لكن "كانط" ينتهى من تحليل تلك المعطيات الضرورية إلى القول باستحالة الصعود إلى مبدأ واحد مطلق للأشياء ، وينتهى إلى القول بضرورة التوقف عند عدد متكثر من المبادئ لا يمكن ردها إلى أبسط منها .

* * * *

مبـــدأ الـذاتـيـــة

نظرية العلم

كيف يمكن أن تكون الفلسفة علماً ؟

نظر "كـانط" إلى الفلسفة على أسـاس أن واجبهـا هـو الوصـول إلى كـل محكـم الأجـزاء لا يقبـل أى ثغـرات ، ولا أيـة زعزعـة . ومـن أجـل بيـان مهمـة الفلسفة كتـب رسـالة عنوانهـا : "حـول فكـرة مـذهب العلـم أو الفلسفة" فـإذا كـان علـى الفلسفة أن تـصبح علمـاً يقينيـاً لا يقبـل الجـدل أو المعارضـة ، فينبغـى عليهـا أن تحـل كـل ألـوان التناقض والتعارض بين المذاهب الفلسفية . وعند هذه النقطة بدأت الفلسفة النقدية عند "كانط" .

لكـن التعـارض لم يُحـل – مـن وجهـة نظـر "فـشته" – إلا بعلـم يجعـل الترابـط بـين القـضايا محكمـاً ، ويؤلـف كـلاً يقينيـاً ثابـت اليـقين . إن طـابع العلـم هـو اليـقين الـشامل المنـتظم فـى كـل أجزائـه ، وتبعـاً لهـذا يقتـضى العلـم الارتبـاط المحكـم الواحـد بـين جميـع المبادئ والقضايا . ولن يكون ثمة علم بدون وحدة "المبدأ الأساسى" أى وحدة المطلق [8].

ويقوم تأسيس العلم عند "فشته" على أمرين :

الأول : المبدأ الأساسى ، وهو الذى تتوقف عليه سائر المبادئ .

الثـانى: مـذهب العلـم أى ارتبـاط المبـادئ بعـضها بـبعض ارتباطـاً ضـرورياً محكمـاً يقينياً يستمد ارتباطه وإحكامه ويقينه من يقين المبدأ الأساسى .

إذن فمذهب العلم عند "فشته" هو العلم الباحث فى إمكان العلم بوجه عام ، وبذلك هذا المذهب لن تقوم الفلسفة بوصفها علماً واضحاً بيناً .

ومذهب العلم يقوم على مبادئ رئيسية :

(1) مبدأ أساسى مطلق

(2)، (3) مبدآن نسبيان أولان أساسيان.

والمبدأ الأول الأساسى المطلق لا يمكن إلا أن يكون واحداً فحسب والمبدآن النسبيان يتحدد أحدهما عن طريق المحتوى، والآخر عن طريق الشكل فحسب.

الأنا أو الذات

يقول "فشته":

"تأمل فى نفسك، وأصرف نظرك عن كل ما يحيط بك إلى باطنك، هذا هو المطلب الأول الذى تقتضيه الفلسفة من مريديها. الأمر لا يتعلق بشىء خارج عنك، بل يتعلق بك أنت وحدك".

المبدأ الأول الذى يجب أن يشرع منه المذهب فى نظر "فشته" هو "الأنا" أو الوعى الإنسانى. وبهذا المبدأ رد "فشته" جميع ضروب التعارض التى لم تجد حلاً لها فى المذهب "الكانطى". ولقد استوحى فكرة مبدئه الأول من القانون الأخلاقى الذى يعتبر "الالتزام" القضية الأساسية التى يمكن بها إثبات الوجود. والحق أن نقطة انطلاق "فشته" ليست من نظرية المعرفة، بل من نظرية الأخلاق. فـ "الأنا" يصنع نفسه، لكنه لا يصنع نفسه فحسب، بل يصنع "اللا – أنا" بوصفه عالم التجربة الذى يتضمن ذوات أخرى. وهنا تمر "الأنا" أو "الذات" بثلاث خطوات لكى تدرك نفسها [9]:

التقرير

الذى يعد شرط "الأنا" الأساسى أن تقرر وجودها، وهو ما يسمى بـ "مبدأ الذاتية" أى "أنا تساوى أنا" أو "أنا هو أنا".

التباين

ومعناه لا يمكن أن تقرر الأنا ذاتها إلا إذا قررت إلى جانبها "اللا-أنا" أو "اللاذات".

التأليـــف

ويعنى التوحيد بين "الأنا" و "اللا-أنا" بتحديد متبادل كليهما للآخر.

وهذه الخطوات الثلاث تمر بها "الأنا" ، ففى البداية تتضمن كل ما أعرف وما أتبين وما أجرب . وهذا الفعل الأول من أفعال "الأنا" متى أفصح عنه ، كان متضمناً للمراحل الثلاث فى الجدل : الموضوع ونقيض الموضوع ومركب الإثنين (الموضوع والنقيض).

ففى المرحلة الأولى ، تضع "الأنا" ذاتها أى تؤكد نفسها وتصرح بوجود ذاتها على أنها الفعل الذى به تملك ذاتها على نحو خلاق ، دون أن تكون هناك ذات تفترض متقدمة عليها . وفى المرحلة الثانية ، تكون هناك "لا-أنا" مقابلة "للأنا" . المرحلة الثالثة ، يكون تأكيد لحد " الأنا " و" اللا - أنا " أى أن " الأنا " و" اللا - أنا " يتحددان بشكل متبادل على أنهما نتيجة لهذه الحركة الموصلة من " الأنا " إلى " اللا - أنا " وإلى " الوحدة بينهما ".

إن "الأنا" متى أكدت ذاتها إنما تتميز عن موضوع هو غيرها، وهى حين تصنع ذاتها تصنع "مقابلها"أو حدها (العالم الموضوعى). وهذا العالم الموضوعى ليس عقبة تلتقى بها "الأنا" فى سبيلها ، وإنما هو حد "تعطيه الأنا لنفسها" . إذن فوجود " الغير" ضرورى لتأكيد وضع "الأنا" [10].

* * * *

مراجع الفصل الثانى من الباب الرابع

(1) نقلاً عن د. عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص276.

انظر أيضاً :

Godfrey Vesey, Idealism Past and Present, Cambridge university Press , London New York , 1982 , p. 113.

(2) د. عبد الرحمن بدوى ، المثالية الألمانية (شلنج) ، دار النهضة العربية ، 1965 ، من مقدمة الكتاب.

(3) د. عثمان أمين ، المرجع السابق ، ص278.

انظر أيضاً :

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p.544.

قارن كذلك :

Fichte Johann Gottlieb , Early Philosophical Writings , Translated and edited by Daniel Breazeale , London : Cornell University Press , 1988 .

(4) د. عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ، ص12.

(5) نقلاً عن د. عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص282.

أيضاً :

Patrick I, Gardiner, Nineteenth Century Philosophy, The Free Press , New York, Collier-Macmillan, Limited, London, 1970,

p. 18.

(6) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوى ، المثالية الألمانية (شلنج) ، ص15.

قارن كذلك :

Fichte , Foundations Transcendental Philosophy , Translated and edited by Daniel Brazeale , London : Cornell University Press , 1992 .

(7) د. عثمان أمين ، المرجع السابق ، ص284.

(8) د. عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ، ص21.

قارن كذلك :

Neuhouser , Frederick , Fichte's Theory of subjectivity , New York , Cambridge University Press , 1990 .

(9) د. حسن حنفى ، فيشته فيلسوف المقاومة ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2002 ، ص132.

أنظر أيضًا :

Fichte , Science of Knowledge : with The First and Second Introductions Translated and edited by peter Heath John Lachs, Cambridge University press , 1982 .

(10) د. عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص291.

* * * *